مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار العشرون
المجلد (٦) العدد (٣)
٢٠٢٥ (١-٢٢)

شعرية الموت من شرفات المعنى العالي إلى باحات النثرية القلقة، بين "موت صغير" لمحمد حسن علوان و"موت مختلف" لمحمد برادة

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

حياة البستاني
دكتورة من المغرب، تخصص أدب حديث.
نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ أغسطس ٢٠٢٥م

*** قراءة كالعشق ..كالقدَر**

ويحدث أن تكون الرواية فيضا وفتحا، فلا ينضح النقد إلا بإشراقتها..وللسرد فيها شعرية ملهمة، وقد تأتي سؤالا مؤرقا، يُعدي النقد بحرقته فيتتبع السرد متاهاته ويرصد حيرته، وبين شعرية السرد وفلسفته تتنقل اللغة بين أدوارها، وتتنوع القراءة للأحداث والدلالات، ويتحول البناء الفني بكل مقوماته وآلياته إلى إشارة أو منهج ، وكلاهما موقف من الواقع والحياة، ولكن بصيغتين مختلفتين، صيغة رواية "موت صغير"، وصيغة رواية "موت مختلف"، والموت بالحب ليس كالموت بالمعرفة..لا يستويان. وكلاهما فاتنان وهما يقيمان على تخوم شعرية ليست صغيرة ولكنها مختلفة.

حين شرعت في السفر في نفحات رواية "موت صغير"، لم يكن يشغلني السؤال بتاتا..كانت الدهشة والدفء يملكان علي كل حواسي ..لم أدر كيف أنهيتها هكذا فجأة ، و لم يكن إنهاء قراءتها بسرعة هاجسي، كنت بالفعل داخل عالمها أرافق طالب الخلوة، وأنا أطلب أيضا خلوتي، وكنت منشغلة بالأقطاب وبالفيوض الإلهية كما انشغل، أحسست بالهواء المنعش البارد فوق قمة الجبل كما أَحَسَّ، و خبِرت مجد الاستغناء عن الكل كما خبر، وانجذبت إلى كل ما انجذب إليه، فضاع مكاني من الأرض، وتركت كل ما لا يعول عليه ..والحق أني تركت ذلك منذ اتصالي أول مرة بالصوفية، وقراءتي لمواقف "عبد الجبار النفري"، وأشعار "ابن الفارض"، وطواسين "الحلاج" وأقوال "للسهروردي" و"شمس الدين التبريزي"، يومئذ حلقت عاليا وبعيدا مع طيور السيمرغ ل"فريد الدين العطار"، واشتعل شوقي بترجمان الأشواق ل"ابن عربي". كانت تجربة الحب الإلهي أعمق وأوسع تجربة قرأت فيها بيقظة روحية عجيبة، وراعني مبكرا هذا التعالق بين الحب والموت منذ دراستي الأكاديمية الأولى ل"ملامح التصوف في الأدب الرومانسي" ، وليس مرد ذلك إلى سكرات الحب، وما يخلقه من تحول بالانتقال من حال إلى حال ، ولكن لأمر هذا القطع مع كل شيء، وإنهاء كل الصلات حتى لا تبقى في الروح والذهن إلا صلة واحدة هي الصلة

بالحق المطلق، ولأن الحياة في سبيل الله أشق وأصعب من الموت في سبيله[1]، ولأن محبة الله يقين نرى به ما لا نراه قبله كان الحب موتا ، وصحيح أني لم أزر قرطبة ولا إشبيلية ولا مصر ولا بغداد ولا مكة، ولكني ألفت هذه الأماكن وعرفتها جيدا من خلال مصاحبتي لهذا الطالب، يرتعش جسدي بلسعات البرد كلما قام ليصلي الفجر، وإذا صمت انتظرت أن يتكلم، وإذا غفا أو نام جلست إلى رأسه أنتظر أن يقوم، تخيلتني مريدا يلازمه ويتعلم منه، أحيانا أراه ينظر إلي مع أنه داخل الكتابة وأنا من عالم القراءة أطالعه، ولكنه يفسح لي في أي مجلس يجلس فيه، حتى عندما ابتعد واعتزل في المقبرة كنت معه، كان شيء ما يأخذني وسط الظلام والسكون، شيء أشبه بالرهبة والقشعريرة، لكني ما إن أتذكره بجانبي حتى يهدأ روعي وتسكن نفسي، هكذا كنت معه من سفر إلى سفر، وكنت أتدبر دواته وورقه دون أن أنبس ببنت شفة، وأنا في قمة الأنس به و بأسفاره، حتى إذا بدأت الحكاية الثانية للباحثة عن المخطوط، تحولتُ إلى قارئة عادية..ثم أدركت حينئذ أني مت موتا صغيرا مع الحكاية الأولى وأنا أفيض بها علي كالبهجة والدهشة والسفر...وحين أتممت قراءة الرواية عشت فترة استلذاذ وتأمل فيما قرأت ، فترة ليست بالقصيرة، وبعد ذلك، ودون أن يفارقني معناها العالي، تولدت عندي أسئلة و أفكار كثيرة ،انتقلت بها من القارئة المستمتعة بنبض الورق ونفحات روحية رفيعة لصاحبيها: الأول صاحب السيرة الإمام الأكبر الشيخ "ابن عربي" البعيد في الزمان والمكان والقريب جدا خارجهما، والثاني المؤلف السعودي الذي كتب الرواية وهو بأمريكا في فترة استراحة من أطروحته لنيل الدكتوراه في إدارة الأعمال ، وهو قريب جدا مني ليس من خلال المكان ولكن، لأننا نعيش في الزمن نفسه، و لأني أشتغل بالنظر في هذه الشعرية الوارفة التي يؤسس بها ما يؤسسه من معنى داخل منجزه السردي الفطن ، وربما كلانا ينظر إلى الشيخ "ابن عربي" بعيدا عن اللغط والهرج الذي أشعلت فتيله كثير من الدراسات قديما وحديثا ، فالكاتب مبدع قوي الحضور بإشراقته التي تظل مؤثرة وفاعلة حتى بعد إنهاء القراءة لأيام ، وصرت بهذه التساؤلات أشبه بناقدة تعمل نظرها فيه، وتهم بإصدار حكمها عليه، ليس من أجل النقد وحده، فلسنا نحتاج النقد من أجل النقد، ولكن لإنتاج توجه نافع بهذه الوقفة، لرفع صوتها ربما، وهو صوت هذه المحبة التي تقدر عليها الإنسانية كلها ، لأجل أن نصنع بحضورها التوازن في الحياة للجميع، ومن أجل أن ندرس إمكانيات اللغة بوصفها طاقة مؤثرة ومغرية، ثم من أجل أن تظهر قيمة الرواية وقدرتها على إنتاج المعنى المغاير والتوجهات الأخرى للفكر والقول، كي تكون طريقا لأناقة الحضور، و أدبا رفيعا يملؤنا بقيم الجمال والتسامح والصفاء. وفي غمرة تدبري لطبيعة هذا العمل العالي، تفكرت في علاقة الرواية بالإنسان والواقع والتاريخ والقيم والشعر، وفي علاقة السرد بالنقد، وتساءلت:

أي النقود نحتاج؟ وهل كل القراءات يمكن عدها وقفات نقدية؟ هل كل القراءات مقبولة؟ لماذا نحتاج إلى نقد الرواية؟؟ أي نمط من المعرفة يمكن إنتاجه بها؟..أسئلة كثيرة قد تتكشف لنا حين نخوض في قراءة الخطاب السردي ، ونبحث في الدرس النقدي لهذه الكتابة، وليس القصد من إثارتها طرح إجابات محددة عنها ، أو ادعاء كون الإجابة

[1] - محمد حسن علوان الرواية "موت صغير"، دار الساقي. الطبعة السادسة ،٢٠١٧م، ص:١٣٢.

عنها سهلة أو صعبة، أو المطالبة بالتسلح بها عند الإقبال على قراءة السرود..لأن القاريء الحقيقي لا يدخل إلى مقروءاته متسلحا، بل عاشقا مستطلعا مغامرا ، وإنما الغاية التي إليها أرمي، هي أهمية تأمل هذا الإنتاج الحديث باعتباره إبداع عقل إنساني في سياق تحولات متداخلة متسارعة عميقة صارت به الحياة منحوتة بتفاصيل كثيرة، ، وبإمكاننا أن نتخيل ما وقع، وما يقع، وما يمكن أن يقع باطلاعنا على بعض هذه التفاصيل من وجهات نظر متنوعة ، وعندئذ ندرك قيمة الاختلاف بيننا وكيف كانت ظروف المجتمعات مختلفة والمراحل التاريخية ليست واحدة، فنميل إلى أن نقف عند المشترك الإنساني ، ثم نجعله المحتفى به في محافلنا الثقافية الصغيرة والكبيرة، الوطنية والدولية، تفاصيل السرد لا ترتبط بالكشف عما هو اجتماعي وتاريخي وسياسي ، أو هو متعالق مع ما هو نفسي وفكري و وجودي وأنثروبولوجي، لأنها قبل كل شيء نوع من اللعب الفني المتحايل والمراوغ، والذي يطمح أن يكشف مالا يكشف، ويقول ما يصعب قوله أو ما لايقال ، ولذلك، نعده منجزا فكريا يحمل بصمة إنسانية فارقة ، ويشتمل على مواقف وعلاقات وأفعال كثيرة محاكية لما يقع في الواقع، وبذلك ننتقل من المقارنة بين العالم المتخيل والعالم الذي نعيشه، إلى مستوى الحكم والتقييم والفهم، وقد صار كل الواقع تحت مجهر الأدب، وكانت لنا إمكانية النظر إلى كل شيء من الأعلى ، وصحيح أن هذه الأبعاد ليست ما ينشيء أدبا ، فاللغة الرفيعة والوسائل الفنية المؤثرة والخالقة للمتعة إلى جانب المعنى العميق الشديد الارتباط بالإنسان ، وهذه البصمة المخصوصة بكل أديب والتي تصنع له أسلوبه المتفرد ، كل ذلك إلى جانب الملاءمة والتناسب والتكامل بينها يصير وحدة لها دمغتها ولمعتها وهالتها ..و ذلك نزر قليل مما يمكن أن نطالعه في الروايات الجيدة، بيد أن هذه الرواية نفسها حين تأتي شعرا ، تكون إشراقة المعنى فيها أقوى قد تعمي العين، و حجابها بالنسبة للقاريء العادي يصير غليظا ستارة فوق ستارة، وإذا ما زادت على الشعر "نحو" الحب، شق ذلك على القاريء المحب أيضا، لأن الوقفة النقدية التي تستدعي عمليات عقلية عدة ، يتدخل فيها القلب النابض بالمحبة المنشغل بحاله ، وهو يترك للذوق أن يقول كلمته قبل كل كلمة أخرى. ورواية "موت صغير" ، هي من هذا النوع الشفيف العالي اللغة، يختلط فيه السرد بالشعر والحب، ويلتبس فيه التاريخ بالرمز، ديوان سردي آسر، أو سرد شعري رائق ،صدر فيضا عن قولة ابن عربي:"

إلهي ما أحببتك وحدي لكن أحببتك وحدك"

لحظة صفاء لا يكدره شيء، ومقام إخلاص لا تشوبه شائبة لوعي مقر بحقيقة خالدة، الأنفس متعددة لكن المطلوب المطلق المحبوب واحد أحد، و"موت صغير " عنوان الرواية، لغة صوفية إشارية، شعرية عالية للإمام الأكبر "ابن عربي" شيخ العارفين والكبريت الأحمر فيهم، اقتباس فطن يقظ من قولة "ابن عربي" "الحب موت صغير"، واستحضرت تصديرا للفصل٥٤ [١]، موت لكل ماعدا المحبوب، وفناء في صفاته والطريق إليه المستلزم للسفر الدائم دون سكون أو توقف، قصد الثبات في الطريق، ومن سكن ليس إلا للعدم. سفر يثبت بالأوتاد، ف"اتخذ لك أوتادا تثبت".. ويركن بطهارة القلب، "طهر قلبك" لازمة سردية في الكتابة الروائية، و أقطاب محبة موزعين في جهات الأرض الأربع, وبتقنية التصدير، نسلك مع السارد مائة محطة، هي التماعات روح وفتوحات معنى بالنسبة للقاريء تُفتح له

[١] - انظر رواية "موت صغير"، ص: ٣٣١.

بقراءة متأنية لشعرية سردية تختار لها اثني عشر سِفرا، ليمضي في ترحاله بزاد التخلي والتحلي ، وليطلع على سيرة متخيلة لإمام شغل الناس قديما وحديثا، الشيخ الأكبر "ابن عربي" الذي كتب بغزارة أكثر من ثمانمائة مؤلف، وكُتبت حوله كتابات بكل اللغات، و في كل جهات الأرض، يمضي إليه الكاتب الرصين "محمد حسن علوان" بنفس شعري، وهمة باحث مجد منفعل بيقظته الفتية، المنشغل بقضية الرحيل الإنساني، وهو في غربته من أجل استكمال دراسته في إدارة الأعمال، مشتاق إلى دفء الثقافة العربية العميقة الواسعة، و"محمد حسن علوان" روائي سعودي ولد بالرياض سنة ١٩٧٩م، يشغل حاليا منصب الرئيس التنفيذي لهيئة الأدب والنشر والترجمة في وزارة الثقافة السعودية، له دكتوراه في التسويق وإدارة الأعمال الدولية من جامعة كارلتون الكندية، وقد نشرت له صحيفتا "نيويورك مامز" الأمريكية و"الجارديان" البريطانية مقالات وقصصا قصيرة عام ٢٠١٠ م، كما كانت له مقالة أسبوعية لمدة ست سنوات في صحيفتين سعوديتين: "الوطن" و"الشرق"، عرف بلغته الشعرية الرفيعة وأعماله الروائية الفائزة بجوائز مهمة، فماهي أبر خصائص سرديته المكثفة؟ وأي قراءة ستنجز لهذه الإشراقة الإبداعية القوية؟ وأي استقصاء يمكن أن يستغور جوانبها المتنوعة؟ إنها حتما وقفة مع التماعات دافئة صارت بنفسي بهذا العمل.

*** رواية موت صغير بين التاريخ والمتخيل**

رواية " موت صغير" إصدار عام ٢٠١٦ م، تم الانتهاء من كتابتها في تورنتو ٢٠١٦م، كما تكشف آخر صفحة فيها — الصفحة: ٥٩١-. رواية حائزة على الجائزة العالمية للرواية العربية بوكر ٢٠١٧م. منشورات دار الساقي، بيروت /لبنان. طبعت أكثر من عشرين طبعة، صمم غلافها "سومر كوكبي"، وأخرجت في حجم متوسط، يصل عدد صفحاتها إلى ما يقارب ٦٠٠ صفحة.، ترتبت ضمن سلسلة من الإنتاجات هي: "سقف الكفاية" لعام ٢٠٠٢م، الأكثر مبيعا للكاتب ،و"صوفيا" عام ٢٠٠٤م، و"طوق الطهارة " عام٢٠٠٧م، وتأتي "القندس" عام ٢٠١١م، التي حضرت في القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام ٢٠١٣م، ثم له كتاب نظري: "الرحيل: نظرياته والعوامل المؤثرة فيه" عام ٢٠١٤"م ".وبعدها سيكتب "الترجمان" عام ٢٠٢٠ م، و قد خُطَّ عنوان "موت صغير" -للرواية قيد القراءة - في الواجهة الأمامية للغلاف بخط أندلسي للإحالة على الثقافة التي صدر عنها الإمام الأكبر الذي نشأ بمرسية، وجاء الخط باللون الأزرق الداكن، و تحته صورة رجل يميل الى النحافة، أسمر البشرة ، يظهر منه صدر واسع ورأس معممة بعمامة زرقاء لُفَّت بعناية، وهو في وضعية التحديق إلى الأعلى، يأتزر مئزرا بنفس اللون، يفتح عينا على سعتها متأملا بيقظة وتدبر-عين العقل-، ويغمض أخرى والتي تبديه في نعسة عميقة غائبا عما حوله -عين الخيال -والأيقونة تحيلنا على شخصية الصوفي السالك" صاحب "لا ونعم" المنفتحة كل منهما على الأخرى ، والذي كان دائم السفر، غير منشغل عن طريقه، ناعما بأحواله ، مستنيرا بالإشارات التي تأتيه في خلواته وجلواته. وفي الواجهة الخلفية يستحضر الناشر أربعة أقوال، منها ما يقدم المؤلف، ومنها ما يكشف موضوع العمل باعتباره يحكي الصوفية بوجهيها الناعم والقاسي. ثم ترد أطول قولة، والتي جاءت مركزية في وسط الواجهة، مقتبسة من الرواية، من القسم الرابع المُصَدَّر بقولة "ابن عربي": "من غفل أفل" من السِّفر الأول، يقول فيها السارد: -

منذ أوجدني الله في مرسية حتى توفاني في دمشق وأنا في سفر لا ينقطع، رأيت بلادا، ولقيت أناسا، وصحبت أولياء، وعشت تحت حكم الموحدين، والأيوبيين، والعباسيين، والسلاجقة في طريق قدره الله لي قبل خلقي. من يولد في مدينة محاصرة تولد معه رغبة جامحة في الانطلاق خارج الأسوار، المؤمن في سفر دائم، والوجود كله سفر في سفر، من ترك السفر سكن، ومن سكن عاد إلى العدم.[1]

تبدأ الرواية بورقتين اثنتين يمهد بهما السارد للسِّفر الأول، وشكلتا مدخلا مرقما بالرقم ١، وقد حُدِّد فوقهما المكان والزمان: أذربدجان ٦١٠ه / ١٢١٢م. وهو ما يظهر الجانب التاريخي للعمل، والذي سيستمر على امتداد صفحاتها.

والكتابة برصد التواريخ من مراجع تاريخية، واستدعاء الوقائع الكبرى إلى فضاء الرواية الحديثة، غدت آلية من آليات إنتاج المعنى، وهي أشبه باستدعاء الأسطورة والكتابة بها قناعا، أو معادلا موضوعيا في الشعر العربي الحديث، وإن دل ذلك على شيء فهو قناعة المبدع بصلة الحاضر والمستقبل بالماضي البعيد ، وبمركزية التخييل، و أهمية الاشتغال به بوصفه ضرورة إبداعية جديدة يعقل بها ما ينتجه من المعاني ، و يقف بها على إمكانات الحياة وفق شروط خاصة، من أجل دفع المتلقي إلى توقع إمكاناتها في ما سيأتي من العهود، فالتاريخ في السرد الإبداعي ليس للتاريخ، و لم يكن لأجل مراجعته، بل هو للمستقبلات التي يمكن أن تأتي، ولذلك يمكن الحديث عن التخييل التاريخي بدل التاريخ، وهو ما اشتغلت به رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان"، و الأمر ليس بالسهل المطواع، لأن الوصول إلى اعتماد التخييل بالتاريخ يستلزم قراءة واسعة في كتب كثيرة في مجاله، حتى يستوعب المبدع بعض ما كان، ويستجلي غوامضه، ويخوض عبابه، فيمتلك بذلك رؤيا يطوع بها المادة التاريخية، ويوطن بها أرضية لشخصياته المتخيلة والتي سيجمعها بالشخصيات الحقيقية، و الأحداث المتخيلة والتي سيعقدها بالأحداث الواقعية، حينئذ يتشكل المنجز الروائي بالحقيقي والمتوقع والإضافات التي تخدم البرنامج السردي ورهانات الكاتب به. وقد مزج "محمد حسن علوان" في هذا العمل بين تسعين بالمائة من المتخيل وعشرة بالمائة من التاريخ — حسب ما أقره في محاورة أجريت معه حول الرواية –وهكذا، يحضر التاريخي في معظم الشخصيات، وفي الأرقام، والأمكنة ، والعادات، والأطعمة، والعمران، والأقمشة، والحروب، أما التخييل فيكمن في التفاصيل الصغيرة الخاصة بيوميات إنسان، بما يتصوره الكاتب في لحظات تدبره لحياة أيقونة التسامح والمحبة والطهر، في افتراضه لنمط عيش الشيخ، و انشغاله بقضية سفره، وكثرة الأماكن التي نزل فيها، وما يمكن أن يحرص عليه المرء ويبحث عنه بلا هوادة، وهو ذلك الاتزان في عالم المتغيرات.. والحرص الدائب على طهارة القلب والتي لا تكون دون طلب وسفر ومجاهدات. ولأجل هذا الأمر اعتمد الكاتب أسلوب الجمع بين حكايتين ، حكاية "ابن عربي" الأولى والكبرى والمؤطِّرة لكل تفاصيل العمل، وحكاية ثانية صغرى خدمت رؤيته المستقبلية، عندما تعلق الأمر بالبروفيسورة التي ناقشت أطروحتها في السوربون في موضوع "الرمز والترعة العدمية في فكر ابن عربي" ، وقد انشغلت أيضا بالجغرافية الروحية لتجربته، وبالكيمياء والسيمياء في فلسفته، وبحثت المحدود واللامحدود في تصوره الكوني، والتراث من ثمة، لم يكن في هذا العمل مادة منقولة،

[1] - محمد حسن علوان: رواية "موت صغير" ص:٢٥.

وإنما استجلب مفتاحا إلى معنى مخصوص، وهو ما يذكرنا بقولة ل "أندري مالرو"/André Malraux[1] : "التراث لا ينقل ولكنه يُستفتح أو يُستَغْزى"[2]، فالكاتب "علوان" استضاء به، واستجلب عن طريقه تخييلا شعريا رفيعا، منح سرديته توهجها القوي، وبريقها المشع، واستنطق في غماره ما استنطقه من أجل حياة عميقة وعظيمة، واختيار "ابن عربي" لم يكن اعتباطا أو صدفة، فليس شخصية عادية، بل مذهبا فريدا عاليا في الحضور الإنساني، والعودة إلى التاريخ ليس من باب الشوق إلى الماضي والحنين إليه، بل لأن الروائي يدرك كل الإدراك أن الماضي وقت سائل يتسرب في الأيام إلى زماننا وما سيأتي، وهو بلغته يحفر مجرى لما يبتغيه أن يمرّ، وبهذه اللغة نفسها يترك ما يشاء أن يتركه، فما يجري في القناة هو — فقط– ما يسمح به المبدع، و"محمد حسن علوان" حفر مائة قناة، ومرر من خلالها ما تنحو إليه تصديراته .

*** شعرية السرد والموت والحبكة**

أمران اثنان يستوقفانك بقوة حين تقرأ الخطاب السردي للكاتب "علوان"، الأول أناقة لغته الرائقة والتي تتبدى بداية من عمق العنوان ورمزيته، وشدة تناسبه مع بقية العناصر الحكائية واحتوائه لها، والثاني بناؤه لحبكة رفيعة تتسق فيها كل المكونات السردية من حدث وزمان ومكان وشخصيات ووصف وحوار وأصوات وأنماط سرد وغلاف وصورة..، وهما أمران تزيدهما مواضيع : الحب والصوفية وسيرة "ابن عربي" إثارة وجاذبية وقوة، وكل ذلك تتولد عنه شعرية رواية "موت صغير"، بما هي لغة مغايرة متراحة مفتوحة على التأويل والتخييل، تتوسل بالإيحاء والإشارة، وتبتعد عن التعبير بلغة مألوفة معتادة عند القاريء، فالروائي السعودي "علوان" لا ينقل الأحداث بقدر ما يصورها تصويرا فنيا مؤثرا ،فينتقل من الوظيفة الإخبارية للغة إلى الوظيفة التخييلية لها، ولكنه في كل ذلك لا ينفك عن الميل بالخطاب إلى وظيفة برهانية حجاجية أشبه ما تكون بالمتخفية، وهو نشدان هذه القيم التي ترمز إليها شخصية لا تتكرر: "محيي الدين ابن عربي"، وهو يدهشك في أبسط أوصافه لموصوفاته المتنوعة ، بل تتحول بعض المشاهد عنده إلى صور شعرية تستوقفك فيها طرافة الخيال ، وتستنفرك أمامها أناقة العمق وقوة الفكرة وطرافة الخاطرة، وإني لأعجب ممن سمعتهم يتحدثون عن القسم الأول منها، ويعلقون عليه بكونه لم يجدوا فيه ما يثير فضولهم، وأنه بعد تجاوز الثلاثمائة صفحة فقط، صار هناك ما يستحق أن يُقرأ، ولست أدري من جهتي كيف فاتهم أن الأسلوب نفسه غاية في الإبداع الأدبي ، هذا الذي يجعلك لا تضطر للصبر من أجل قراءة ستمائة صفحة كما قد يحدث مع بعض الأعمال الأخرى وإن كانت ببضع صفحات، فالعبارات في الرواية لم تكن مجرد دوال محيلة على دلالاتها، إنما كانت بالغة التأثير، وأثرها كالعطر المركز يبقى حتى بعد المرور منها إلى قراءة ما بعدها من الجمل والتراكيب والفقرات والأسفار. وزاد يقيني –بذلك– بما طرحته ودافعت عنه فترة انشغالي بالبحث في اللغة الصوفية ومستويات الشعرية العالية في القصيدة العربية الحديثة في المغرب، حيث أدركت أن خصوصية بعض الخطابات ومواضيعها تستدعي لها قارئا من نوع خاص، فليس كل قاريء في مستوى قراءة الشعر أو قراءة التصوف أو قراءة الإشارات، فالأمر لا يعدو أن يكون

[4] - ناقد ومفكر وناشط سياسي فرنسي كانت له توجهات مضادة للاستعمار الفرنسي، صاحب رواية "الشرط الإنساني "التي فازت بجائزة "كونكور".

[5] - سعيد يقطين: الفكر الأدبي العربي – البنيات والأنساق –، منشورات ضفاف، لبنان/بيروت، منشورات الاختلاف، دار الأمان /الرباط. الطبعة الأولى ١٤٣٥ه / ٢٠١٤م، ص: ٢٧٥- ٢٨٨

خاصا ومخصوصا ملزما لاستدعاء منهج خاص ومخصوص في النظر إلى هذه الخطابات، وهو منهج لا يقدر على استدعائه إلا من يكون فيه شيء من فيزيائها. وإلا زاد في تعتيمها ونحا فيها نحوا غير نحوها.

وإذا انتقلنا إلى موضوع الشعرية وعرجنا على بعض مفاهيمها القديمة والحديثة، العربية والغربية، وبكل مستويات القول فيها نجدها في موعدها داخل منجز السارد الشاعر "علوان"، ابتداء من اعتبارها سمات تظهر على النص بفعل الترتيب والتحسين وهو ما يشكل الأسلوب كما عند "الفارابي" ٢٦٠ه ، أو باعتبارها المتعة المتأتية من المحاكاة كما عند "ابن سينا" ٤٨٢ه، أو بالنظر إليها بوصفها أدوات توظف في الشعر كما يراها "ابن رشد" ٥٢٠ه، أو بصفتها قوانين تصنع للحدث الأدبي فرديته كما عند "القرطاجني" ٦٨٤ه.[١]، ثم كما نجدها في نظرية النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" وقد اعتمدها بعد ذلك "أدونيس" لتقسيم وظائف الكلام إلى إخبارية وبرهانية وتخييلية، ومن جهة أخرى، وتحت اصطلاح Poetics نلفيها عند "تزفتان تودوروف"/ T.Todorov علما مرادفا لنظرية الأدب، وبينما يراها "جون كوهن" / John Cohen علما موضوعه الشعر، ويستعمله "ميشونيك" / H.Meschonic درسا يتكفل باكتشاف الملكة الفردية التي تصنع فردية الحدث الأدبي أي الأدبية ، ويوضح "حسن ناظم" في كتابه "مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم" أن الاصطلاح استعملت له ترجمة أخرى هي الشاعرية، ولكن المعنى الذي يستوقفنا للشعرية أو الشاعرية هو الذي يحضر في كتاب "قضايا الشعرية" ل"رومان ياكبسون" / R.Jakobco، وهو يقدمها باعتبارها (ذلك الفرع من اللسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية في علاقتها مع الوظائف الأخرى للغة، لا في الشعر فقط بل حتى خارجه [2])، وصاحَب هذا التصور تصور جديد يقيم الوظيفة الشعرية خارج أسوار الشعر، ومن هنا ليست شعرية "موت صغير" بلغتها وحدها، وهي لغة رفيعة عرف بها علوان" في كل أعماله السردية، ولا في الخيال النبيه، وحسن الترتيب والاتساق بين مكونات المنجز فقط، ففضلا عن الأثر، والوظيفة التخييلية للعبارات والأوصاف، نجد الشعر أو الشعرية في الالتفات الرصين اليقظ إلى كل التفاصيل في الحياة، والتقاط كل ما يمكن أن يلتفت إليه ذهن امريء صاف سليم الطوية، مثل الالتفات إلى السحابة التائهة التي تدخل من الباب الذي ترك مفتوحا، وذكر أسماء القمر في كل تجلياته من ظهوره إلى تمامه: يقول السارد: رافقني الهلال والمحاق والبدر قبل أن تقطع الجبال طريقي[٣]، ومثل هذه الصورة التي كانت مستوى من الكينونة وليست مجرد أداة فنية للتصوير، حين يقول: هبط الليل علي مثل صندوق مظلم لا فرجة فيه، وحين يقول: تحط طيور الحميراء على شجرتي البرتقال المزروعتين على جانبي الباب وقد تشابكت أغصانهما من أعلاه ، وتحوم السناجب الحمراء حول شجرة اللوز وتقضم ما يسقط منها ، وتنزل طيور الدجّل تشرب من الفسقية ثم تطير لتحط على قرميد المنزل[٤]، فتُحس به يعيش إحساسا صافيا يستبطن به نفسه وليس فقط بصدد تجسيد موصوفاته وبيانها، وصف يتحول

[٦] - حسن ناظم: مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم – المركز الثقافي العربي، الطبعة: ١ / ١٩٩٤م، ص: ١٢.
[٧] - رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر / البيضاء ط :١، ١٩٨٨م، ص: ٣٥٤

[٨] - الرواية، ص:٨
[٩] - الرواية، ص: ١٥/١٦.

إلى مستوى حيوي من الحضور للأشياء الموصوفة. ثم هو يمضي إلى تقديم بديهيات ربما لم نلتفت إليها إلا بكتابته، وهي حقائق يعرِّيها بوضوح شديد ،مثل: من يولد في مدينة محاصرة تولد معه رغبة جامحة في الانطلاق خارج الأسوار[١]، ثم حين يتحدث عن الأربعين ويقول: دبت الأربعون في عروقي مثل قافلة طويلة أولها في مرسية، وآخرها في أفق غامض لا أعرف منتهاه شعرت بها اليوم وكأنها طبال كان يتناهى إلى سمعي قرعه المقترب حتى وصل أخيرا وصار حذو جفنيّ[٢] ، وحين يتحدث عن القلق نجده يقول: تعرفت رفيقا ذميما اسمه القلق، لم أسأله مرافقتي و لم يستأذني في ذلك، قفز فوق كتفي مثل قرد مجنون و لم يفارقني بعدها قط، كلما طردته من كتف قفز إلى الآخر، وكلما طردته منهما تعلق في جذع شجرة بعض الوقت، ثم لا يلبث أن ينقض على رقبتي مرة أخرى، لم يتركني أهجع ليلة حتى يجعل صباحهما قاتما مثل قرارة بئر ...[٣] ، وها هو يتحدث عن وصوله إلى بغداد فيقول: قليلة هي المدن التي تجاوز أسوارها أول مرة فتشعر أنها كانت تنتظر وصولك. تلقي على خطواتك الأولى عتابا مشوبا بالحنين وشوقا محفوفا بالرضا هكذا استقبلتني بغداد...[٤] ، والأمثلة كثيرة ولا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات المنجز، وكلها تنم عن شاعرية الكاتب الوارفة، وخياله المشرق، ولغته الفاتنة، وصفاء منظاره، والشعرية في هذا العمل تتأسس أيضا في التوجه إلى اللين بفطنة، وإلى حقائق دقيقة، ومعارف رمزية تظل وراء حجاب، إنها مما لا يدرك في الضجيج، ومما لا يتأتى للجميع، هي شعرية نلفاها كلما اقتربنا من الخطاب الصوفي، وإن من بعيد، وهي تعلق بلغتنا كلما مضينا نكتب بها عن بعض نفحه، فهل يمكن أن نتحدث عن الصوفية بعيدا عن الشعر؟ وهل يتأتى ذلك لغير شاعر؟

إن رواية :موت صغير" كتابة متفردة عالية دُبِّجت بذوب الروح ، فكانت حروفها قطر محبة يترله الكاتب قطرة قطرة على قرائها لينتعشوا بمائها ويرتووا ، عمل فني سردي وجودي، قائم بالشعرية ولها وفيها، من خلال تيمة السفر من أجل الإبقاء على "طهارة القلب"/ اللازمة المكررة كل حين داخل المتن، ومن خلال حب هو نفسه الموت، إذ لا شيء معه يعود كما كان، و"ابن القيم الجوزية "تحدث عن مقام الفناء في المحبة، فجعل الحب أول أودية الفناء[٥]، والرواية موقف فناء في روح تسامح إنساني شامل ممتد على الأرض ، وراءه تشتغل إرادة مريد يطلب حياة كبيرة، ويبلغ الإنسان القاريء موقفا جديدا من خطاب ظل قرونا في الظل، وداخل قفص الاتهام، وهذه شعرية الفكر والكتابة والسلوك . والتجربة الصوفية برمتها ما هي إلا تجربة حب باذخة جعلت من اللغة برزخا بين الحضور والغياب، وبين الإشارة والحقيقة، وهنا تماما منشأ الشعرية. ثم تكتسح الأسفار سفرا سفرا لتضيء حياة "ابن عربي" الداخلية والاجتماعية والسياسية في زمنه، ولتكون تحت تصديرات هي بمثابة فتوح للكاتب ، والتقسيم ليس عملية بريئة ، كما يرتئي "عبد الفتاح كيليطو" : قل لي كيف تقسم الأشياء أقول لك من أنت؟ !! ، كاتب صافى فكره وكتابته فجاء عمله صافيا رقراقا، و لم تكن لغته مجرد وسيلة لحمل حمولته الثقافية الواسعة بل كانت مسكنا

١٠ - الرواية، ص: ٢٥.
١١ - الرواية، ص: ٣٥٤.
١٢ - الرواية، ص: ٣٥٥.
١٣ - الرواية، ص : ٤٠٩.

١٤ - ابن القيم الجوزية: محبة الله عز وجل، حقق نصوصه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: يوسف علي بديوي – اليمامة للطبع والنشر والتوزيع، / دمشق بيروت / الطبعة: ١ – ١٤٢١ه – ٢٠٠٠م.ص: ١٨٧.

وجوديا أصيلا لهوية مفتونة بالمحبوب، كما لم تكن لغته مراوغة أو محتالة، بل لغة وجد وذوق وتفكر، ترحل بنا من الأندلس إلى المغرب، ومنه إلى مكة والعراق ومصر والجزائر، شرق وغرب يتعانقان في سيرة لا تتكرر مرتين، وفي رحلة روح أفناها العشق فغابت وهي حاضرة، ثم حضرت وهي غائبة ، "محيي الدين ابن عربي" في رحلة عروجه لتنقية الذات، وتخليصها من الأدران لتكون أهلا للإخلاص في التقرب، نقلنا الكاتب بلغته إلى زمن مضى فعشناه بتفاصيله، ثم وجهنا إلى مساحات في الذات لم نكن لنلتفت إليها دون توجيهه، وليست تصديراته لأقسام روايته إلا ثمار يانعة لهذا الديوان السارد: موت صغير".

١- شمس المعنى، ومائة نجمة مضيئة.

٢- آليتا "المخطوط" و "التصدير".

آليتان رئيستان لابد أن تستوقفا قاريء الرواية، وقد وظفتا بعناية وإتقان وهما: آلية المخطوط وآلية التصدير اللتان تحضران بقوة ملفتة لتتحول إلى علامتين منتجتين للبعد التاريخي والجمالي للمنجز، مُسهمتين في بناء فرادته الفنية والدلالية ، فالأولى تظافرت مع بقية العناصر الفنية لترسم ملامح "موت صغير"، خصوصا وأنها تشكل مادة نصية مهمة ساهمت في إنتاج الحبكة الروائية في العمل ، وهي مرفقة بتواريخ محددة، ما يقوي علاقة الرواية بالجانب التاريخي والتراثي، ،وقد ميزت القسم الثاني المحيل إلى أبحاث البروفيسورة المهتمة بخطاب التصوف وقضاياه، ليتعالق بذلك الشعري بالمعرفي، باعتبار آلية المخطوط عنصرا فنيا بانيا للمتن وملتبسا بعنصر الحدث، وهي أيضا مكون معرفي له مرجعية تاريخية واحدة أو متعددة يمكن للباحث والمؤرخ أن يمتح منه مادته، كما يغترف منه الأديب المبدع ، ونورد منها: -

١- مخطوط في حلب/٦٥٧-١٢٥٩م

٢- مخطوط في دمشق ٦٥٨ه/ ١٢٦٠م

٣- المخطوط في الكرك ٧٠٨ه/ ١٣.٩م

٤- المخطوط في سمرقند٨٠٤ه/ ١٤٠١م

٥- المخطوط في أماسيا٨١١ه/ ١٤٠٩

٦- المخطوط في أسطنبول١٠٢٦ه/ ١٦١٧م

٧- المخطوط في دمشق ١٢٩٠ه/ ١٨٧٣م

٨- المخطوط في دمشق ١٣٤٤ه/ ١٩٢٥م

٩- المخطوط في حماة ١٤٠٢ه/ ١٩٨٢م

المخطوط في بيروت ١٤٣٣ه/ ٢٠١٢م، وهي نصوص تتسم بالتعدد والدقة وهي ترفق بمكانها وزمانها المثبت ب صيغتين الصيغة الهجرية، والصيغة الميلادية، أما التصديرات فقد بسطت سلطتها على المادة الحكائية، واشتغلت بتقسيمها وترتيبها، وهي عبارة عن أقوال لابن عربي انتقاها الكاتب بعناية بالغة ليقول بها لحظات صفائه، إصدارات تجعل الوحدات الحكائية أروقة، على كل رواق ستارة لامعة شفافة، تتسرب منها شمس المعنى دافئة، لتصل الى قلب المتلقي وتدفعه الى التبسم بهدوء، بعدها يعود إلى نفسه ليتأملها في لحظة صفاء لا تنتمي الى هذا الزمان. ومنها: -

١- كل وقت يكون لا لك ولا عليك لا يعول عليه

٢- السفر إذا لم يكن معه ظفر لا يعول عليه

٣- الناس نفوس الديار

٤- الخاطيء الأول لا يخطيء،

٥- يا حذار من حذار

٦- الزمان مكان سائل والمكان زمان متجمد

٧- تتلون الحقيقة بوعي العارف كما يتلون الماء بلون الزجاج

٨- الخفي في الجلي

٩- الحقيقة تأبى الحصر

١٠- السفر إذا لم يسفر لا يعول عليه

١١- الحجاب الذي عليك منك

١٢- إنني مما يأمن القلب خائف

١٣- كل معرفة لا تتنوع لا يعول عليها

١٤- من صحبك لذاتك فعول عليه

١٥- السفر قنطرة الى ذواتنا

١٦- الجليل لا يوصف ولا يعرف

١٧- الحب سر إلهي

١٨- الحب موت صغير

١٩- أنت أيها الإنسان أنت المصباح والفتيلة والمشكاة والزجاجة

٢٠- مقدار كل امريء حديث قلبه

٢١- لما لزمت البحث والتحقيقا لم يتركا لي في الأنام صديقا

٢٢- الحكمة إذا لم تكن حاكمة لا يعول عليها

٢٣- اعط الصغير حقه

٢٤- ما خفي الحق إلا لشدة ظهوره

٢٥- العطاء بعد السؤال لا يعول عليه

٢٦- من طلب السلطنة على الخلق ملأ الله قلبه شغل

٢٧- الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير

٢٨- يأتي بالليل ما يأتي بالقهر ولا يأتي بالقهر ما يأتي بالليل

٢٩- التصوف بغير خلق لا يعول عليه

٣٠- كل بقاء يكون بعده فناء لا يعول عليه

٣١- كل حب يزول ليس بحب.....

وبهذه الاختيارات المنتقاة من أقوال ابن عربي بيقظة روحية عميقة، مع تقسيم الرواية الى أسفار/ جمع السِفْر: بكسر السين وتسكين الفاء، وهي في ذات الوقت منشغلة بالسَّفَر: بفتح السين والفاء، مع حديث عن المخطوطات، يلتحم البناء الفني بكل تقنياته مع آلية التخييل التاريخي ليجعل من العمل ديوانا سرديا كبيرا يمضي لإنتاج معنى عال، متصلا بأخلاق تجعل من الحياة نفسها قصيدة شعر حين يجتهد المرء في طلب طهارة القلب ومعرفة الخالق.

*** بين الروايتين: حياة كبيرة وحياة مختلفة[1]**

قرأت رواية برادة " موت مختلف" بعد مدة وجيزة من قراءتي " موت صغير: ، وربما كنت لا أزال في فترة الانتشاء بقراءتي الأولى ، واختياري الجمع بينهما في دراسة واحدة ليس بسبب مدخليهما الفريدين ، أي التجاذب والتقارب وكذا المغايرة في عنوانيهما ، ؛وعلامة الموت الساطعة فيهما، بل عزمت على ذلك بعد إنهاء قراءة العمل الثاني، حيث أدركت في الموت رمزية وطبقات فهوم وفيه من الموضوعات والقضايا ما يطرحه أطروحة جمالية فاتنة، وليس فقط إشكالا فكريا أو فلسفيا، خصوصا، وأنك حين تنتقل من حال الطمأنينة باليقينيات والسكون إلى طهارة القلب، والتوازن في الحياة بالأقطاب والفتوح الربانية التي تفعم بها أجواء الرواية الأولى ،إلى ما يقوم عليه العمل الثاني من الشك والقلق والأسئلة والتوجس ونوع من الاحتراق

[1] - الروايتان موت صغير وموت مختلف روايتان فائزتان بالجائزة، الأولى بالبوكر والثانية بكتارا، وقد ارتبط اقتناء الروايات عندي في الدرجة الأولى بفوزها ، والجائزة لا تقيم العمل عندي بقدر ما تكشف لي أمرين اثنين: الأول بعض المقاييس والمعايير النقدية التي تعتمد لاختيار العمل الجيد، والأمر الثاني بحرص على تجنب الاعمال المهلهلة والضعيفة ليس من حيث فكرتها فقط بل من حيث لغتها وأسلوب صياغتها ونحو ذلك، ولذلك فالجائزة التي تأتي بعد التحكيم من أعضاء لجنة مختصة ؟إنما هو مما يخدم قيمة العمل ثم نشر اللغة العربية والارتقاء بالذائقة والوعي معا.

النفسي القاسي، تتفطن إلى أنهما حالتان إبداعيتان مختلفتان ومتناقضتان تماما، حتى وهما معا تقعان على تخوم السيرة ، فموت صغير سردية مكثفة تشتغل بآلية السيرة الذاتية باعتبارها مخطوطة من صاحبها ابن عربي الذي اختلى بنفسه مدة خمسين سنة، لتنتقل إلى النقل بضمير الغائب مع البروفيسورة المفتونة بالتصوف ورجالاته، والثانية تسرد عن شخصية شاب مغربي يدعى منير سيغادر وطنه بعد نيل شهادة البكالوريا، متجها إلى فرنسا التي سيمكث فيها ما يقرب من خمسين سنة، حيث سيشتغل أستاذا لمادة الفلسفة ،وقفة مع مسارين اثنين، الأول يتجه بنا إلى المحبة وتنقية القلب والتفكر، والثاني إلى العقل والفلسفة والتفكير، روايتان تستلهمان التاريخ والسيرة الغيرية ، وهما معا فائزتان بالجوائز ، توجت رواية "موت مختلف" هي الأخرى بجائزة، وكانت من صنف كتارا للرواية العربية في دورتها الثالثة بالعاصمة القطرية، رواية موت صغير تنقل إليك شذرات من حياة مشرقة وكبيرة، ورواية موت مختلف توقفك عند تفاصيل واقع مختلف لمحطات الذات في حياتها المكثفة ثم مراجعتها ومراجعة قناعاتها في علاقتها بالأصول والهوية، وكما اختلفت حياة السرد في العملين اختلفت إيحاءات علامة موت النكرة الموصوفة في المنجزين ، الموت هو الحب دون زيادة أو نقصان عند ابن عربي، وهو مما يرتبط بالكراهية والمكروه عند منير، أو هو ما يكشفه التصدير الأول للفصل الثالث من رواية موت مختلف حيث يورد الكاتب المغربي من نص "سيرفانتيس" الشهير "دون كيخوت ديلامانشا" ، القولة: لا تمت يا سيدي واعمل بنصيحتي،، وعش طويلا لأن أكبر جنون يرتكبه ‘إنسان في هذه الحياة، هو أن يترك نفسه يموت هكذا دون مبررات ودون أن يقتله أحد..وإذا كنت تموت من حزن رؤيتك مهزوما، فحملني المسؤولية..، لنفهم حجم الخيبة والانكسار والاجترار في هذا الإنجاز الفريد، الموت هو كل ما يحاول منير أو السارد أن يقاومه ويحتمي منه بالكتابة، إنه الإسراف في حب الحياة، والاهتمام الزائد بكل تفاصيلها، يقول: سأحدثكم عن الموت، لماذا لا أحكي لهم عن علاقتي بالموت، سأصارحكم بأن شبح الموت يقض مضجعي، لأنني أسرفت في حب الحياة، ولاأطيق أن أنقل رغما عني إلى منطقة العدم، ارتياد دهاليز الشيخوخة يقترن بخوفي من دنو الأجل، ويوهمني أن عزرائيل على مقربة مني ويده على زناد البندقية[1].ثم يظهر بجلاء من خلال المقطع الشعري الذي أنهى به السارد الفصل الثاني، وفيه يقول:

أخيرا وقد انفصلت
عن شجرة التفاح البرية
عن مشاغلك اليومية
مكسوا بالأزرق الرقراق
محاطا بجبال جرداء
أنصت إلى كل هذا الصمت المطبق.. [2]

موت هو الصمت داخل انغلاق الهوية، بعيدا عن القيم الكونية التي تجمع الإنسانية، قريبا من الفوضى والقتل وصور الدم المألوفة، وهو التقاعد والوصول إلى سن العجز والشيخوخة بعيدا عن ميعة الشباب الآسرة.

وهكذا تأتي رواية "موت مختلف" تجربة سردية مختلفة تنبش في الظلال وتقتات من التفاصيل وليست قائمة إلا بأسئلة عميقة تستغور علاقة الكتابة بالوعي والواقع وعلاقة الذات بالعولمة وتسارع التحولات المتلاحقة في الكون، ولذلك فهي كتابة متوترة قلقة تختلط فيها الكوابيس

[1] - محمد برادة: موت مختلف.: ص: ١٧٢

[2] - الرواية، ص: ١٣١..

بالأفكار والذكريات بالرغبة في الفهم ، والتجربة الشخصية الثرية بطموح كبير مشترك في العيش الجماعي الكريم والآمن، وإذا كان "محمد برادة" يستنطق التاريخ فهو لا يكتب الرواية التاريخية التي يعرفها النقاد، ولا يوظف التخييل التاريخي كما يوظفه "محمد حسين علوان" لأن البطل الإشكالي في روايته شخصية من شخصيات عمله الإبداعي فيه شيء من "برادة" وهو يجسد نمط المثقف العربي الباحث عن قيم العدالة والحرية والمساواة، مؤمنا بالهوية الإنسانية الواحدة.

١- سرد برادة بين الجمالي والإيديلوجي

٢- محمد برادة ولعبة التذكر والنسيان

"موت مختلف" منجز روائي مختلف يحتفي فيه كاتب النسيان بالذاكرة وتيار الذهن، وبالحياة والموت، ويقدمها شهادة عن رؤيته للكتابة، ومحاورته للماضي ولخطابات اليقين بلغة مسائلة، وسردية ممانعة تأبى التطبيع مع العنف والتردي والخضوع اللامشروط لأي جهة ، فجاء مرآة عاكسة لتجربة حياتية ثقيلة لأنا هشة محدودة مترنحة بغور الندوب ، ما تريد قوله كثير ، وما تخشى أن تنساه كثير، وما يستعصي على النسيان أكثر، وهي التي احتفت بالنسيان في عملين روائيين: "لعبة النسيان" و"امرأة النسيان"، وفي عمل ثالث جامع بينهما هو: "من أجل النسيان". ليكون أيقونة النسيان الفريدة في المشهد الأدبي العربي الحديث ، بيد أننا في الرواية "موت مختلف" نتلقف "أنا" تحضر بما يدور في داخل ذاكرتها التي تأبى التخطي والتجاوز والنسيان، وتلح على المساءلة والنقد ، ومن خلال تقنية القناع "منير" لتتبدى الشخصية المُخْتَلَقَة ذاكرة حيوية في طور الاشتغال، ثم يأتينا الكاتب ليبرم مع القاريء ميثاق القراءة لعمله في الواجهة الأمامية للغلاف حين يجنسها باصطلاح رواية، ليكون مشاكسا حين يوحي في تصديراته بأشياء تذكرنا بالسيرة الذاتية والتخييل الذاتي، وهي أجدر أن تكون رواية شخصية من أن تكون رواية، خصوصا وأن كل ما فيها يذكرنا ببعض تفاصيل حياته.

الرواية من الحجم المتوسط، طبعة ٢٠١٦م، أصدرتها دار الآداب من بيروت، عدد صفحاتها: ١٧٥، مصدرة بإهداء الكاتب إلى رفيقه في رحلته إلى "دبدو" وهي مدينة في شمال المغرب الشرقي، ذكرى صداقتهما الحميمة، بعدها صفحة تتضمن ثلاثة أقوال بمثابة تصديرات للعمل الإبداعي: الأولى: ليس الزمن سوى حاضر مؤلم، محمل بالذكريات المقتحمة، الطاغية، فلا أستطيع أبدا أن أحذف صورة واحدة من حياتي..

الثانية: وحدها مشاهد قصيرة، قضمتها مثل لحظات خاطفة، تسعفني على الانفلات خارج الحاضر، ومن ثم الانتباه الذي أوليه للعالم، واحتفائي باللقاءات العابرة والانطباعات الهاربة.

والثالثة: كيف نكتب ونحن نستحضر الموت أفقا لنا، ونتحدث عن حبوط وفشل ومأساة؟ ألا تستوجب الكتابة افتراض مجال للتصارع والربح قبل الخسارة؟

و "محمد برادة" كاتب رواية "موت مختلف" سهم مغربي نافذ لا يخطيء ضالته في الثقافة والنقد والترجمة، فهو ناقد ومترجم وأكاديمي من مواليد مدينة الرباط عام ١٩٣٨م، درس بمصر والمغرب وفرنسا، من أبناء جامعة السوربون حيث نال شهادة الدكتوراه في "النقد وسوسيولوجيا الأدب" عام١٩٧٣م، اشتغل بالتدريس الجامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ساهم في تحرير مجلتي "المشروع"، و"القصة والمسرح"، وأشرف على إدارة مجلة "آفاق" ، ثم شغل منصب رئيس اتحاد كتاب

المغرب خلال ثلاث ولايات متتالية ما بين١٩٧٦م الى ١٩٨٣م، عُرِف باهتمامه بالسياسة وحقوق الانسان قبل تفرغه للأدب، وبمشاركته في منابر وطنية ودولية عديدة، كما عرف بانفتاحه على الأدب والفلسفة الغربية حيث قرأ ل"نيتشه"/Nietzche و"غوته"/Goethe و"هيدغر/Heidegger، نشر أول نص له بعنوان "المعطف البالي" في جريدة العلم المغربية عام١٩٥٧م ، أصدر من الروايات: "لعبة النسيان" ١٩٨٧ م، "الضوء الهارب "١٩٩٤م، "مثل صيف لن يتكرر" ١٩٩٩م، "امرأة النسيان" ٢٠٠٢م، "حيوات متجاورة" ٢٠٠٩م، "بعيدا عن الضوضاء قريبا من السكات" ٢٠١٤م، ومن المجموعات القصصية مجموعتان: "سلخ الجلد" و"ودادية الهمس واللمس"، ترجمت رواياته الى الفرنسية والاسبانية والانجليزية"، ومن كتبه كتاب "محمد مندور وتنظير النقد العربي"١٩٧٩م، وكتاب "أسئلة الرواية أسئلة النقد١٩٩٦"م،ثم "فضاءات روائية" سنة٢٠٠٣م، و"الرواية العربية ورهان التجديد"٢٠١١م، حصل على جائزة المغرب للكتاب في صنف الدراسات الأدبية، كما فاز بجائزة "كتارا" عن روايته قيد النظر.

رواية "موت مختلف" جاءت مستهلة بصفحتين يتحدث فيهما السارد عن أول يوم له في ضيافة التقاعد، وقد مرت سبع وأربعون سنة على وصوله إلى فرنسا آتيا إليها من "دبدو"، وينقل فيها إحساسه بكون الزمن مجرد حاضر لا ينتهي،(لأول مرة أنتبه إلى أن الحياة تجري في حاضر مستمر)،[1]ثم يكشف فيها رغبته الملحة في أن يسرد رحلته من أجل أن يستوعب من خلالها مسارا خضع للارتجال والتروة والجري وراء أحلام عزيزة، لتقييم الهواجس، يبدؤها بأول محطة: وهي الوقوف عند مسقط رأسه فضاء الانتماء إلى الهوية، قبل أن تأخذه دروب الالتباس والتحول وترمي به في نطاق فقدان اليقين.

سردية منظمة في ثلاثة فصول معنونة هي: زيارة مسقط الرأس – في بلاد الانوار – كابوس مقيم، وهي نفسها ثلاث مستويات من إنتاج المعنى ، وثلاث محطات كبرى من حياة الشخصية الرئيسة، وثلاثة أنوات برؤى فلسفية مغايرة، الفصل الأول اختاره الكاتب مساحة للذكريات الغائمة القسمات عن حنان الأم وثقة واعتزاز الأب بالسارد ، وكشف دوافع مغادرته لوطنه إلى عالم يقول عنه: (يوقظ الحواس والعقل ويستحث الفضول[2])، ثم سيستيقظ عنده فضول الجذور والهوية في السنة الجامعية الأخيرة بباريس، ليشرع في البحث والتنقيب عن الأصول بقراءة مقالات وأبحاث عن "دبدو"، والبحث عنها في الخريطة، والاهتمام بتعرف شكلها الطبوغرافي، لينتهي إلى حديث عن حيرته وإحباطه بعد تقاعده وإنهاء ابنه بدر دراسته العليا، مع وقوفه عند موضوع طلاقه من زوجته، فكان الفصل محطة للتذكرات واليوميات والتطلعات والاستيهامات للسارد الطفل، ثم المراهق الحالم بأوربا، فالمدرس بثانوية "هنري دوبلزاك"، والمحلل لتحولات المجتمع الفرنسي منذ ثورة الطلاب لسنة ١٩٦٨م.

أما المحطة الثانية فجاءت مصدرة بقولة ل"تيم باركس"/Tim Parks : ما أتعسنا ..إذ نكتشف في آخر المطاف أن حياتنا كانت دوما موازية لأحلامنا، وأنهما لم يتعانقا قط[3]، والقولة ملخص ما نستقرئه من هذا الفصل،

[1] - محمد برادة: رواية "موت مختلف "، طبعة ٢٠١٦م، دار الآداب للنشر والتوزيع / بيروت – لبنان. ص: ٩.

[2] - نفسه، ص:١٥.

[3] - نفسه، ص:٤٥.

حيث سينقل السارد نضالاته وسعيه بقوة وإلحاح نحو تحقيق أحلامه مع رفاق النضال، راسما ملامح شبابه، ثم حاملا أعباء شيخوخته التي بدأت تقتحمه، ليكتشف بقاء حلمه في عالم الأحلام، ومضي عمره، مع تغير قناعاته واشتعال أسئلته عن المرحلة وعن الأماني و الواقع و الحزب السياسي والإيديولوجيات، محطة مضيئة لمسار "منير" داخل عاصمة الأنوار باريس/فرنسا، في الجامعة و عن المحاضرات وأهم الكتب المقروءة(يتذكر مثلا: كتاب البؤس ل"بيير بورديو")، ترسم ملامح مرحلة موسومة بالانفتاح على الشعر والمسرح والأدب والسياسة والسينما، تطل بنا على صداقاته، علاقته بصديقه "ألبير سالاس"، وعلاقاته النسائية، نضالاته ونقاشاته وتأملاته الفلسفية، ناقلة وضع الشباب العربي ، ووضع فرنسا في الستينات والسبعينات، والتفاتا إلى مسألة تأجيل المغرب في حسابات البطل،(كان يضعه في خانة المؤجلات[1])، لنفهم ما يمكن للصدفة أن تقوم به حين تلعب لعبتها، حين تنقل الشاب الذي كان يتجنب الانضمام إلى مظاهرات التلاميذ واحتجاجاتهم في الثانوية المغربية، إلى بؤرة النضال ليتحول إلى مناضل نشيط في فرنسا، منغمس في دهاليزها السياسية، مدرك لخباياها الصغيرة والكبيرة، مطلع على تفاصيل تحولاتها الاجتماعية، يقول السارد: غير أن مسار منير إذا نظرنا إليه من الداخل بعيدا عن تأملاته الفلسفية، سنجد أنه كان خاضعا للصدفة أكثر من استجابته لاختيار ذاتي ..الحياة كلها مفاجآت، كل مفاجأة تفتح لك بابا.. هكذا كان منير يردد مع نفسه وكأنه شعار يستهدى به[2]، فصل مخصوص لفرنسا بين الثورة والامبراطورية، لقضايا المثلية، والهوية، والإعلام، والإرهاب، والخوف من الإسلام، والقناعات، والتعلق بقيم الأنوار والقيم الكونية لأنها أوسع وأشمل وأقرب إلى نفس البطل، وإضاءة الاشتهاءات، انتهاء إلى لحظة الشعور بالخواء والتي دفعته الى زيارة مسقط رأسه.

أما المحطة الأخيرة، فقد جاءت مصدرة بقولة من نص " سرفانتيس"/Cervantes : "دون كيخوت ديلامانشا"، قدمت لنا "أنا" فلسفية محللة لأحداث عامة ، وذاتا مفكرة تؤرقها أحداث العالم المرعبة التي باتت تعيشها الإنسانية بسبب الكراهية منذ تفجير ناطحتي السحاب في قلب نيويورك سنة ٢٠٠١م، إلى أحداث العراق وسوريا وأفغانستان وفلسطين واليمن وليبيا وفرنسا[3]، مع تحليل لنظام اقتصاد الرقميات الجديد، وربطه بالقوى الهادمة البعيدة عن القيم الإنسانية، يقول السارد عن أثره : ..ضحاياه الذين يفقدون البوصلة فئات ، منهم من يفجر نفسه وسط جموع من الرجال والنساء والأطفال.. منهم من يدمن المخدرات القوية ..منهم من يتجرع الكحول لينفصل عما حوله من سوداوية وانحباس.. جميعهم يهربون من واقع بات يزرع اليأس، ويفرغ العقول والأفئدة من حب الحياة[4]، إلى أن يكشف بقاء حلمه بإنسانية موحدة، مبشرا بجيل جديد سيواصل الحلم هو جيل الانفتاح والتسامح ، يقول على لسان ابنه بدر: أشعر أن قلبي يتسع لاحتواء كل البشر وكل الثقافات والأديان من دون أسيجة أو حدود[5]، ثم وصولا إلى قناعة جديدة هي أن الاقبال على الحياة شكل من المقاومة، جاعلا من الحياة نفسها عاصفة مخربة : تذكرت قولا قرأته في مجلة أو سمعته في حوار أحد الأفلام :

[1] - نفسه. ص: ٧٦.
[2] - نفسه. ص: ٧٧
[20] – نفسه
[21] - نفسه، ص: ١٣٩.
[22]- نفسه. ص: ١٤٥.

أنت تتناول عشاءك في هدوء مع علمك أن عاصفة على وشك أن تخرب سماط مائدتك ذلك هو تعريف الحياة[1].

بذلك تتظافر العناصر الفنية البانية لسردية التفاصيل مع التأملات الفلسفية، واستراتيجية الكاتب في الكتابة لخدمة انشغاله بقضايا حضارية وكونية، تعتبر قضية الهوية الثقافية، والارتباط بالأصول، وعلاقة الشرق بالغرب، والقيم الكونية المشتركة، وتغير القناعات بتغير الظروف والسياقات، ومسألة التذكر والنسيان، ومفهوم الزمان، من أبرز هموم الكاتب في عمله الذي ارتأى له تارة ضمير المتكلم ساردا ليتمكن به من بوح يسع تفاصيل وحقائق أدق وأكثر عن المرحلة التي يغطيها زمن الحكي على غرار تبئير التخييل الذاتي الذي يميز السرود الجديدة ، وتارة ينقل الكلمة إلى راوي الرواة كتقنية سردية قديمة راسخة في تراثنا السردي، ليتوازى بذلك المبنى مع المعنى، حيث يرافق هذا التأرجح بين التقنية الجديدة /ضمير الأنا، والتقنية القديمة / راوي الرواة، تأرجح في القناعة الفلسفية والرؤية الحضارية بين الانتصار غير المشروط لقيم الأنوار في ريعان الشباب عندما قرر البطل أن يترك الوطن ووالديه بلا رجعة، متخذا من الشك في قيم هويته زاده وعتاده، وفي الطرف الثاني يأتي العزم على العودة إلى الوطن بعد أن انفصلت عنه زوجته الفرنسية من أجل أن تعيش حياة المثلية مع عشيقتها معتزة بمبدأ الحرية، وعندما صار موضوع شكه هي كل القيم التي ناضل من أجلها عمرا كاملا ومنها هذه الحرية. يقول: راهنت على قيم تحمل الخلاص بحسب ظني ، لكنها تكشفت عن خدعة وإواليات تفوق إرادتي ، كنت أخوض صراعا من أجل الأفضل إلا أنني وجدتني على الرصيف وحيدا[2]، وهو التأرجح الذي يتعالق منذ البداية بالتراوح بين ذات خاصة وغيرية متغيرة ، (ومع الأيام ، عظم اقتناعه بأن لا فكاك بين قطبي المراوحة هذه بين ذات قلقة وغيرية تكتسي ألف لبوس).[3].

وفي مسألة تجربة الكتابة نلفي تأرجحا من نوع آخر يرتبط برؤية الكاتب لهذه الممارسة التي تتعالق عنده بحالين غير مستقرتين هما: التذكر والنسيان في إطار لعبة كتابة لا تنفك خيوطها تتعالق مع شعرية الذاكرة، فلعبة النسيان والكتابة قد تختصر لنا التجربة الإبداعية للكاتب ورؤيته للكتابة والقراءة معا، خصوصا إذا استحضرنا مع ذلك اعتبار "رولان بارت"/Roland Barthes القراءة في مستوى من مستوياتها نسيانا وهو ما يدفعنا إلى التساؤل : لماذا هذا التذكر من كاتب يحتفي بالنسيان في ثلاثة أعمال، وكأن الكاتب لا يقول ما يقوله إلا بفضل ما ينساه ، أو من أجل أن ينساه، وكأن التذكر مربك لكتابته التي يتفكر بها ومن خلالها في الواقع والحياة ويسد بها ما يكون فارغا بالنسيان، فلا يجده إلا متاهة يسير فيها بالنسيان، وفي هذا المنحى تطالعنا دراسته "التأويل عبر متاهة الذاكرة" التي يقدم فيها قراءة لرواية "أن ترى الآن ل"منتصر القفاش" في كتابه النقدي " الرواية العربية ورهان التجديد"، والرواية والنسيان هما أداتان تسعفانه على الفهم والتفكير، أما التذكر فيصير معولا للحفر من أجل فهم آخر لما يحدث أو يستقبل في علاقته بما كان، والطريف أن الذاكرة عنده تعمل في حال اليقظة والنوم، يقول على لسان السارد:..حين يغلبه النعاس تكون ذاكرته تستعيد بكيفية مشوشة عبارات قرأها قديما..، وهي ليست فقط ملتصقة بالماضي، إنها لاتعمل إلا لتخدم الحاضر، وهي بمواصفات ذاكرة "علوية صبح"[4]

٢٣ – نفسه، ١٦٦.
[2] - الرواية. ص: ١٢٠.
[3] - نفسه، ص: ١٢١.

[4] - كاتبة لبنانية في مقالها: أنزع الحجب عن ذاكرة النساء المنهوبة / مجلة نزوى، ع: ٩٥ / ٢٠١٨م، ص:١٢٢.

ليست شيئا ماضويا أو جوابا نهائيا إنما هي استكشاف دائم، والزمان نفسه يغدو مع صاحبنا حاضرا مستمرا – كما سبقت الإشارة –.كما تصير عنده الكتابة احتماء بالنظر الى الرسالة الالكترونية التي تلقاها من عشيقة تقترح على البطل الاحتماء بالكتابة,(لماذا لا تحاول أن ترتاد مجال الكتابة لتحتمي من الملالة وشكوك الوجود[1]).

وما من شك أن الرواية "موت مختلف" رواية حضارية تذكرنا بسلسلة من الكتابات الروائية التي أنتجتها عصبة من الشباب المثقف الذي عاش الصدمة الحضارية بعد أن اختار ترك الوطن المتخلف والتقليدي من أجل استكمال دراسته وحياته في بلد التقدم والحداثة و الأنوار، من مثل: "أديب" لطه حسين، "الحي اللاتيني" لسهيل إدريس ،"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم ، "قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، "موسم الهجرة الى الشمال" للطيب صالح، "شرق المتوسط" لعبد الرحمان منيف وغيرها، وهو مما نحا بها إلى نمط الرواية الذهنية التي يغلب فيها خطاب الأقوال على خطاب الأحداث، و بحسب تصور "جيرار جينيت"/ Gérard Genette للخطاب الروائي، ما ينبني على سردية المشاعر والأفكار يدرج ضمن خطاب الأقوال، وهو التصور الذي انطلق منه مجموعة من المهتمين المشتغلين بالبحث في تقنيات أبنية الروائية العربية الحديثة ، ومنهم "يونس بوراي" و الباحث "عبد الله المدغري العلوي" الذي سيجعل من هذا النمط سمة الرواية المغاربية، [٢]،وهي في ذات الوقت رواية شخصية تضطلع فيها شخصية خيالية بنقل ما وقع في الواقع من باب الاحتمال[٣]، وبمناقشة أضاليل الإيديولوجية ، وبعض القناعات الراسخة عند الأفراد، مما يدرجها أيضا ضمن بلاغة الإطفاء – على حد تعبير "بول ريكور"/ Paul Ricoeur – لأنها كتابة تسعى بالتذكر إلى التصحيح وتعديل ما يصدر عن ذاكرة جماعية ، كتابة تتوخى علاج الندوب[٤]، والتاريخ الذي يقدمه ويسائله إنما هو تاريخ نفسي متخيل لشخصيات متخيلة يجسد من خلالها جميعها حالة الذات بين وضعيتي التذكر والنسيان. وبذلك تغدو الكتابة عند "محمد برادة" نمطا من التأمل الفلسفي للأسئلة المؤرقة، وأداة منتجة لقراءة جديدة للسياقات المقروءة، وسردية تجريب يتعالق فيها السياسي بالفلسفي والإيديولوجي بالجمالي.

*** تفاصيل وتقنيات**

تشرع الرواية شرفاتها على التجريب ومعانقة الجمالي والفكري، بدءا من العنوان في تعالقه مع الأيقونة المستضافة إلى ساحة الواجهة الأمامية من الغلاف، ليس فقط من خلال موضوعة الجسد الأنثوي المحيل إلى امرأة متبرجة جامحة منطلقة في مسارب الحرية، وهي في وضعية الإدانة الشديدة بصراخ قوي، للتعبير عن التمرد و الرفض، ولكن من خلال المفارقة القائمة بين عتبة العنوان و عتبة الصورة

[1] - الرواية، ص: ٣٦.

[٢] - انظر: يونس بوراي " دراسة في تقنيات السرد " مطبعة الجسور، ش م. م، وجدة الطبعة :١/ ٢٠١٣م ص: ١٦١. .يقول: (.هذا الأمر يقوي وضعية السارد المنشغل أساسا بسرد وقائع تضعف فيها الحركة لاسيما حينما يعمد السارد إلى عرض تأملاته أو خواطر غيره إزاء أحداث معينة.)
وانظر:
A.Mdarhri-Alaoui : Narratologie ,téories et analyses énonciatives du récit ,Ed.Okad,Rabat 1989 ; p : 141. ١٣٤ ص: /

٢٩ - محمد الداهي: السارد وتوأم الروح من التمثيل الى الاصطناع، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء / المغرب، الطبعة الأولى ٢٠٢١م، انظر ص٣٥.

[٤] - . محمد الداهي: السارد وتوأم الروح، ص:١٣٢.

المرفقة، ثم بين مكونات الصورة ذاتها، ذلك أن الموت مدعاة إلى التفكر، وإلى الاشتغال بما يذكر بالروحي، وما يتلاءم معه من أزياء علامة الزهد والدروشة، أو على الأقل تحيل إلى الاحتشام ، بيد أن فستان المرأة وقوامها، مع خصلات شعرها المنسابة المتطايرة يجعل منها امرأة متبرجة حديثة، ممثلة لثقافة أجنبية دخيلة، وعليه، فإن كلتا العلامتين استعارتان، فالمرأة هنا، لا تجسد حال التروع المرتبط باحتضار الميت وخروج الروح من الجسد، تماهيا مع لفظة "موت" التي تحضر نكرة لترسخ اختلافها، بل هي إحالة إلى الذات التي تنحو إلى التحرر والانعتاق من أضاليلها، وتتوق إلى هويتها الثقافية وإلى القيم الكونية، وفي نفس الوقت تنفتح كعلامة سيميائية على معاني الثقافة الأوربية، والقيم الجديدة، وتحتفي بقيمة الحرية التي ترتبط أشد الارتباط بالتمرد الصريح على الثقافة الأصيلة، ويدعم هذه القراءة ما يبدو ظلا شفيفا أبيض، تحاول المرأة أن تنفصل عنه وهي في حال مخاض قاس وصعب ، ثم تتبدى الفسيفساء المغربية القديمة بهندستها الدقيقة وألوانها المضيئة: الأخضر والأبيض والأصفر، وهي في حال التصدع لتحيل إلى معنى التجاذب القائم في الذات المكابدة بين قيمها العربية الخصبة والقيم الغربية الجديدة والمشكوك فيها أو المبهمة، وهو ما يوحي إليه اللون الأسود الذي ترتديه الأنثى، ومع ذلك تظل كلمة "موت" في حاليها التنكير والاختلاف علامة قلقة ومثيرة إلى حد المشاكسة في سردية يتفكر بها صاحبها في نفسه، وتاريخها، ومسكوكاتها، بعيدا عن السكوت قريبا من الضوضاء الداخلية، لتحضر تجربة فكرية وجمالية ينخرط بها فعل الكتابة في شرطه بما هو نشاط اجتماعي مقاوم ومغامر متصل بظروفه، ومحرك للماء الراكد بمساءلة جريئة لقناعات الماضي للفرد والجماعة.

إذن، تقنية المفارقة وما تولده من توتر وتنافر بين عناصرها، هي أول ما يواجه القارىء للعتبات الأولية، لتتناسل بعدها مجموعة من التفاصيل الإجرائية اشتغل بها المنجز السردي وهو يقدم لنا شخصية منير/ الشخصية المركزية الساردة في القسم الأول بضمير المتكلم المفرد "أنا" ، والذي سيستحوذ على كتابة اليوميات والرسائل، ليشتغل السرد بالتداعي والحوارات والتذكر، فيقدم حكايته منذ أن كان طفلا، ثم تلميذا في مدرسة ثانوية مغربية يعيش محاطا برعاية أمه وأبيه الكساب، إلى أن سار أستاذا لمادة الفلسفة بثانوية فرنسية، ومناضلا في صفوف الحزب الإشتراكي ، ثم متقاعدا يتأمل مسار حياته ليقرر العودة إلى أرض الوطن، فعن طريق سيل الوعي، وتدفق الأفكار والذكريات، سينقل إلينا السارد إحساسه بالخذلان، وشهادته عن مرحلة سياسية وتاريخية، ناقلا التحول الكبير في رؤيته ومواقفه، و اليقينيات التي آمن بها وناضل طويلا من أجل إقرارها، لكنه صار يراها تتهاوى أمامه واحدة تلو الأخرى، ولا يملك إلا أن يعاين سقوطها، ويكتشف ضياع عمره وجهوده في السراب، وليعزم بعد ذلك، على البحث عن حياة مختلفة وسط انكساراته. ثابتا على قيم كونية تمثل المشترك الإنساني الذي يسع الجميع ويشكل الملجأ لهؤلاء وهؤلاء من الشرق والغرب معا، وقد لا نبالغ إذا قلنا إن الشخصيات الثانوية التي تحضر مع "منير" ماهي إلا امتدادا للحالة الرئيسة التي يمثلها، فهي لا تحضر إلا من أجل أن ترسم حركته النفسية وحالته السلوكية وخطوط ذكرياته المتشابكة، وهو المستوى

الذي فطن إليه رولان بارت[1] في طرائق استحضار الشخصيات وعلاقتها بالشخصية الأهم، وكأن هذه وحدها وظيفتها، وكأنها تترك في دائرة النسيان ومنها تُستدعى فجأة إلى وعي المتكلم أو السارد، لتضحى امتدادا لحالته الذهنية التي تنحو نحو التصحيح والتصويب.

وتنشط آلية التصدير في هذا العمل كما نشطت في العمل الأول، حيث تتصدر كل أقسامه، بل نلفي تصديرا للرواية بنصين ل "م.ب"، ويحضران بعد ورقة الإهداء مباشرة، ثم تصديرا للفصل الثاني بقولة ل"تيم باركس"/ Tim Parksتمت الإشارة إليها، وتصديرا للفصل الأخير بنصين ل"سرفانتيس"/M.Cervantes و"كارل ماركس/Karl Marx، وهي اقتباسات تنتج بعض معاني الرواية، وتضيء لنا الأسئلة الكبرى التي تشغل بال "برادة"، وتوحي في ذات الوقت إلى نمط التفكير الذي ينجزه الكاتب بهذه الكتابة.

كما يشتغل البناء اللغوي بتقنية استنطاق التاريخ، قال التاريخ: إن فاطمة بنت الخليفة عبد الحق المريني هي التي موَّلت في ق ٧ه بناء القصبة من مال صداقها[2]، و توسل العمل بتواريخ محددة مثل: القرن١٥، وهو الزمن الذي كانت فيه "دبدو" فضاء للتسامح والتعايش بين المسلمين واليهود والأمازيغ والعرب كما ينقل، و في الحديث عن تسمية "دبدو" في شمال المغرب ب"إشبيلية" يثبت السارد سنة ١٤٧٠ه باعتبارها سنة التسمية، ويتحدث عن ثورة الطلاب لسنة ١٩٦٨م، وينقل لنا مفاجأة سنة١٩٨٣م حين قرر "ميتران" انعطافة ب١٢٠ درجة سنة ١٩٨٠م، و يورد تاريخ المنشآت الفرنسية في الهند المتمثل في سنة١٩٣٠م، وثورة مايو لسنة ١٩٦٨م[3]، مشتغلا بتعدد الأصوات والمراوحة بين ضمير السارد المتكلم(أحسني مربوطا بأرسان وثيقة، إلى مخلفات التجربة الطويلة التي عشتها في فرنسا)[4]..وضمير السرد الغائب براوي الرواة الذي سيضطلع بمهمة استحضار لحظات ومشاهد تخطر على بال منير، مع التعليق على أفعاله وأحواله، بمثل قوله: (..لعل منير يبالغ في التعبير عن حالته(..)لأن شخصيته فيما نعلم، وبحسب ما تلفظ به في مواقف أخرى تتسم بالقوة والتصميم)[5]، و تسمية "راوي الرواة" التي يستعملها لم تكن مجانية، فهي اصطلاح مستضاف من الموروث السردي والأدبي القديم مشحونة بقصدية متصلة بمعنى الحسم فيما يُنقل من الأخبار، ومفيدة للإفاضة والتفرد عن السارد فيما يقوله، ففيه تمييز لما يُنقل به عما يُنقل بالسارد سواء حضر بالضمير المتكلم أو بالغائب، "راوي الرواة" له سلطة السارد العليم، وله القدرة أيضا على تقييم الأخبار التي ينقلها، والحكم على الشخصيات التي يقدمها، وقد يكون من إيحاءاته اعتبار المرحلة التي يتحدث عنها في حكم كل ما هو قديم متجاوز.

ومن أبرز التقنيات الفنية في الرواية، الاستيهامات، والكتابة المتقطعة الشذرية التي نمثل لها بما يحضر بالعناوين: بأي ميزان، الفرح قليل، الأحلام تنسحب، يا من وراء البرزخ، مثل قطعة سكر[6] .

وتقنية التراسل عن طريق الرسائل المتبادلة بينه وبين أستاذة التربية ف.ب، ثم ما كتبه لصديقه "سالاس ألبير"، وأخيرا رسالته لابنه "بدر"، فنقرأ له: –

[1] - آلان روب: لقطات، ترجمة: عبد الحميد إبراهيم، مجلة فصول، العدد: ٦٥، خريف-شتاء-٢٠٠٤م/٢٠٠٥م، ص: ٣٤٠.
[2] محمد برادة: موت مختلف، ص: ٢٧.
[3] الرواية، ص: ٦٣/٦٢.
[4]- المرجع السابق، ص: ٣٤.
[5] - محمد برادة: المرجع السابق، ص: ٩٩.
[6] - الرواية، ص: ٣٩/٣٨.

١- عزيزي بدر: الان، وقد أصبحت في عز الشباب، واعيا بمشكلات العالم، باحثا عن طريق يضفي المعنى على حياتك..[١]، ويقول في رسالته إلى "ألبير": من هنا أقفز إلى ما عشناه أنا وأنت خلال تجربتنا في انتفاضة مايو٦٨، أستعيد كل الأحلام والتطلعات[٢]، وفي رسالة ف. م الى منير، نقرأ:

٢- الصديق منير: أنت تتحدث عن الكآبة والعبث اللذين هما عنصران ملازمان بحسب قراءاتي لعملية الابداع والتفلسف.. أنا حاولت أن أكتب ولم أوفق، ربما لأن ارتباطي بالتربية يمنعني من التحليق بعيدا عن رؤيتي المثقلة بالبيداغوجية، وهي ترد على رسالة كتبها إليها، يقول ضمنها: العزيزة ف. م تسأليني عن حياة التعطل التي أعيشها منذ شهور بعد إحالتي على التقاعد[٣].

وإلى جانبها تنشط تقنية اليوميات، فتحت عنوان مضغوط: "من يوميات منير"[٤]، ينقل لنا أخباره ، ومثالها ما كتبه في ٥ يناير ٢٠١٣م: كل هذا العمر، كل هذه السنوات، وأنا لا أملك بعد حقيقة أفعالي...[٥]،ومثال تقنية الحوار، مادار بين منير و أستاذ الفلسفة الحديثة: سألت أستاذ الفلسفة الحديثة بعد انتهاء حصته ، أن يوضح لي ...فقال لي..[٦]، ثم بينه وبين بدر، وقد كُتِب بصيغة المشهد المسرحي، الابن: تتجاهل ما يؤرقني وأنت أدرى به فيما أظن، الأب: لست نبيا ولا وسيط وحي، بحسب علمي، لماذا تفترض أنني على علم بما تعانيه[٧]، وقد امتد على ست صفحات، بيد أن أطرف تقنية في هذه الكتابة كانت باستحضار أفلام وملخصها، وحكم و عِبر من عالم السينما، و الاستشهاد بمجموعة من الكتب الفلسفية، ومن ذلك، ذكره لمشاهدته لفيلم "الكراهية" / la haine سنة ١٩٩٥م، للمخرج "ماتيو كاسوفيز" /Kassovitz، ليسجل:.. شبان يسكنون إحدى ضواحي باريس الصعبة، وتجمعهم جنسية واحدة، ويؤلف بينهم شعور جارف بالكراهية تجاه فئات المجتمع الغنية..[٨] ، وهو الفيلم الذي سيحلله مع تلاميذته[٩].

ويورد قولة لمخرج فيلم: بين المخ واليد لا بد من واسطة تتمثل في لغة القلب[١٠]،

وتتبدى صارخة آلية الكتابة بالتذكر حين يستشهد بقولة لأحد الكتاب، فيقول: أتذكر ما قاله كاتب عن الأرق: الأرق مثل النوم يحملك إلى مناطقك المنسية، ويجعلك تنبش لفائفها ولغاتها، رجاء أن يجلي عن الذاكرة حمولتها المعوقة[١١]

واتخاذ الكاتب الرواية أداة معرفية تظهر بجلاء وسهولة باستحضار المقروءات من كتب ومقالات، ككتاب "الرأسمال في القرن الواحد والعشرين" ٢٠١٤م للباحث الاقتصادي "توماس بيكيتي/Thomas Bikini، ودراسة لفيلسوف أمريكي "رشارد رورتي"/ Richard Rorty في مجلة ديوجين ١٩٩٦م: "من نحن؟، وكتاب "مجتمعات المراقبة" لجيل دولوز/Gilles Delleuze، وكتب مقروءة بعد التقاعد، مثل: "مع التمزيق، كيف لا

١ - الرواية، ص: ١١٤.
٢ - الرواية، ص: ٤١/٤٠.
٣
٤ - الرواية، ص: ٣.
٥ - الرواية، ص: ١١٩.
٦ - الرواية، ص:٥٠.
٧ - الرواية، ص: ١٤٢.
٨ - الرواية: ص: ٧٧.
٩ - الرواية، ص: ٨٩.
١٠ - الرواية، ص: ٣٥.
١١ - الرواية، ص: ٣٦.

نصير مجانين؟" للفيلسوف الفرنسي برنارد ستيكلير/B.Stiegler.

كما توسلت سردية "موت مختلف" بأخبار المشاهير والأدباء: الكاتب "رومان كاري" Romain Gary/، والكاتبة "فرانسواز ساغان" Francoise Sargan/،و الكاتب الرومان" أوجين لونيسكو" / Eugène Lonesco، والقاريء للمنجز سرعان ما يلتفت إلى توظيف أسماء مفكرين بكثرة، ما يزكي التوجه الفلسفي للرواية والانشغال السياسي للكاتب، فنصادف "ميشيل فوكو"/Michel Foucault، وجيل دولوز/Gilles Delleuze ، وأعلام السياسة مثل: "جاك شيراك"، "فرانسوا هولاند" ، "نيكولا ساركوزي" .

وهكذا تظافرت هذه الآليات مع نظام التقسيم المعتمد لتشكيل فرادة كتابة أيديولوجية ذات موقف واضح من الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القيمي لعالم خبره الكاتب بوعي، فقدم موقفه من أحداث وقعت في الماضي/فترة زمنية محددة، وكان لها تأثير كبير على مساره، ومسار العالم، لنكون بذلك أمام كتابة مقاومة وممانعة تسعى إلى الاستمرار بعد انهيار الأحلام والإيديولوجيات، وفي ذات الوقت علامة جمالية تخدم هذا الوعي الذي يتخذ من الكتابة الإبداعية وسيلة لاستكناه مخبوءات الظلال، كما يكشف الكاتب "محمد برادة" في كتابه "الرواية العربية ورهان التجديد"، لما سجل: الرواية العربية بعد ١٩٦٧م وسيلة فاعلة لاستكناه مخبوءات الظلال[١] ، لتأتي نصا نثريا متوجسا مليئا بتفاصيل فترة ، كاشفا عن مرحلة فكرية في فكر الكاتب المغربي متسمة بالشك والرفض لعالم تقوده الفوضى، ويستبد به التيه، يقول في حوار معه عقب فوزه بجائزة كتارا عن روايته:-

شغلتني أسئلة العولمة التي أزالت الحدود وزعزعت القيم بصفة عامة ..كما انشغلت بعلاقة النخبة المثقفة بالقيم الكونية والتماهي مع الحياة الفكرية والسياسية والثقافية لأوربا وثوراتها، بدءا بالثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩م، وثورة الطلاب لسنة ١٩٦٨م، مرورا بتحولات التاريخ الكبرى التي باتت تهدد المجتمعات بفقدان البوصلة[٢]..وقد أسميته العالم الكابوسي، أو عصر الشك في خطابات اليقين في المثل السياسية والخطابات الإيديولوجية بعد الاضطرابات الكبرى التي يعرفها العصر الراهن.

*** الخاتمة**

"موت صغير" سر صغير للحب يطل به "محمد حسين علوان" على الحياة بعين قارة وقلب يشتعل محبة وتسامحا فتشتعل معه اللغة وترقى ، و"موت مختلف" حياة تطل على نبضها بمنظار الشك والتأمل والتقييم، لتغدو معها اللغة تساؤلا وتشاكسا، وبين شعرية الأولى وفلسفة الثانية تتبلور كتابة روائية عربية جديدة تقدم ذاتا عربية مختلفة معتدة بهويتها وتاريخها، وغير منغلقة على نفسها ، فهي تؤمن بالآخر، واعية بمستلزمات المرحلة الحديثة، متطلعة إلى الإنجاز والمشاركة في بناء حضاري قوي يستعيد للأمة العربية ريادتها، وللكتابة دورها التأسيسي المنتج، تتخذ من السفر والبحث وسيلة لتحقيق راحتها وتطورها، ومن القيم التنويرية والإنسانية منشأ الكتابة وغايتها، ومن العلم والمعرفة وسيلة وطريقا، سرديتان مختلفتان: سردية قلب وسردية عقل وموت واحد، هو موت الهوية المغلقة والقراءة الواحدة

[١] محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، منشورات كتاب دبي الثقافية، الإصدار: ٤٩، الطبعة:١ مايو ٢٠١١م. ص:٥٠.

[٤٩] – حاورته عزيزة بوعلام/الرباط بعد فوزه بجائزة كتارا.

وتحنيط الأمكنة والأزمنة، من أجل إنسان عربي مختلف بفكر وبقيم عالية يعيش بهما زمنا واحدا ليس إلا حاضرا لا ينقطع ، يتصل فيه الماضي بما سيأتي، وتكون فيه هندسة الأمكنة التي يطأها وتطؤه تقاسيم بيت واحد لكل البشر، ففي كل جهات الأرض توجد الحكمة ويوجد الحكماء وأنصار الفضيلة والمحبة، وفي كل الإيديولوجيات توجد أوهام وأخطاء، وكل الخطابات تحتاج إلى مراجعة ونقد، كما نحتاج إلى الحركة والسفر لنتحرر من الدوائر المغلقة التي قد تحنطنا ونحن نحسب على قيد الحياة، تلك التي لا تكون إلا بهذا الموت المجازي الصغير والمختلف للنعرات والكراهية والإحساس بالعجز، والروايتان معا تكشفان عن حركة نشيطة في الأدبين السعودي والمغربي، وعن علو كعب العرب في السرود الطويلة وحضورهم في المشهد الروائي العالمي الحديث بمنحى التجريب والآليات المتنوعة في الكتابة الروائية والانشغال بهموم الذات الإنسانية الحالمة بالعيش الكريم الآمن ، لكن بأسلوبين مختلفين : شعرية لغة رفيعة منتقاة بحذق وصفاء عند "محمد حسن علوان"، وسردية الشك والتساؤل والتذكر القائمة على اليوميات والرسائل ونقل الأخبار والذكريات عند محمد برادة ، فأبدع كل منهما في خلق حياة سردية فاتنة من الموت ، كما نجحا في صوغ شعريته.

*** المراجع**

اولاً- المراجع العربية

محمد حسن علوان: موت صغير، دار الساقي، الطبعة :٦، إصدار: ٢٠١٦م.

محمد برادة: موت مختلف: دار الآداب للنشر والتوزيع / بيروت، لبنان، طبعة ٢٠١٦م.

ابن القيم الجوزية: محبة الله عز وجل. حقق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلَّق عليه: يوسف علي بديوي، اليمامة للطبع والنشر والتوزيع. دمشق- بيروت، الطبعة:١، إصدار ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

سعيد يقطين: الفكر الأدبي العربي- البنيات والأنساق— منشورات ضفاف، لبنان/بيروت، منشورات الاختلاف: دار الأمان /الرباط، الطبعة: ١، إصدار: ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

حسن ناظم: مفاهيم الشعرية — دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم-المركز الثقافي العربي، الطبعة:١،: ١٩٩٤م.

رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد اولي ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الطبعة:١، إصدار١٩٨٨م.

محمد برادة: الرواية العربية ورهان التجديد، منشورات كتاب دبي الثقافية، الإصدار: ٤٩، الطبعة:١، مايو ٢٠١١م.

محمد الداهي: السارد وتوأم الروح -من التمثيل إلى الاصطناع — المرركزز الثقافي للكتاب — الدار البيضاء/ المغرب، الطبعة: ١إصدار: ٢٠٢١م.

يونس بوراي: دراسة في تقنيات السرد، مطبعة جسور ش. م. م. وجدة، المغرب. الطبعة: ١، إصدار ٢٠١٣م.

مجلة نزوى:العدد : ٩٥، إصدار ٢٠١٨م./ حوار مع علوية صبح: أنزع الحجب عن ذاكرة النساء المنهوبة.

مجلة فصول: العدد: ٦٥، خريف-شتاء ٢٠٠٤م/٢٠٠٥م./ آلان روب: "لقطات"، ترجمة: عبد الحميد إبراهيم، هيأة الكتاب.

ثانياً– المراجع الأجنبية

A.Mdarhri-Alaoui ;
Narratologie,théorieset analyses énonciatives du récit,Ed,Okad,Rabat.1989.